السياسات المالية في عصر عمر بن الخطاب

(١٣-٢٣هـ)

[الضبط المالي وأزمة عام الرمادة]

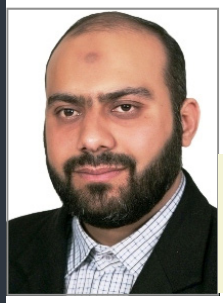

عامر محمد نزار جلعوط
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وآتاه الحكمة، وفصل الخطاب، وآزره بصفوة الأصحاب أولي البصيرة والألباب، يتقون ربهم ويرجونه حسن المآب، فصلاة الله على معلمهم نبينا محمد وآله وصحبه ومن سار على دربهم إلى يوم الحساب وبعد:

فهذا جانب من السياسات المالية لثاني الخلفاء الراشدين، سيدنا أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب، نبراسٌ وضّاء ونورٌ ساطع في الفقه المالي، والاقتصادي الإسلامي:

١-استلام أمور المال:

توفي الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقام خلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدعوة الأُمناء، ودخل بهم إلى بيت المال، ومعه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان رضي الله عنهم، ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه ديناراً، ولا درهماً، ووجدوا خَيشةً للمال فنُفضت فوجدوا فيها درهماً، فترحموا على الصدّيق رضي الله عنه وكان بالمدينة وزّان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يزن ما كان عند أبي بكر من مال فسُئل الوزّان: كم بلغ ذلك المال، الذي ورد على أبي بكر؟ قال: مائتي ألف

٢-ضبط المالية العامة:

لقد فاض المال بشكل كبير في هذا العصر الذي شكّل أساساً واضحاً لبيت المال، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدمت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من عند أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بثمان مئة ألف درهم، فقال: أطيب ويلك؟! قلت نعم، فبات عمر ليله أرِقاً حتى إذا نودي بصلاة الصبح قالت له امرأته: ما نمت الليلة! قال: كيف ينام عمر بن الخطاب، وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مذ كان الإسلام؟! فما يؤّمن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه في حقه ؟! فلما صلّى الصبح اجتمع إليه نفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: إنه قد جاء الناس الليلة ما لم يأتهم مذ كان الإسلام، وقد رأيت رأياً فأشيروا عليّ، رأيت أن أكيل للناس بالمكيال، فقالوا: لا تفعل يا أمير المؤمنين، إن الناس يدخلون في الإسلام ويكثر المال ولكن أعطهم على كتاب، فكلما كثر الناس وكثر المال أعطيتهم عليه قال: فأشيروا علي بمن أبدأ منهم؟ قالوا: بك يا أمير المؤمنين إنك ولي ذلك، ومنهم من قال: أمير المؤمنين أعلم قال: ولكن أبدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الأقرب فالأقرب إليه فوضع الديوان على ذلك).

لقد طور الفاروق رضي الله عنه النظام المالي بزيادة الموارد وضبط الإنفاق مع مراعاة ترتيب حقوق الناس في مختلف الأقاليم من خلال نظام الدواوين.

١-الخَيْش: ثِيابٌ رقاقُ النسج غِلاظُ الخُيُوطِ تُتَّخَذُ من مُشَاقَةِ الكَتَّان ومن أَرْدَئِه. لسان العرب جـ٦ ص٣٠٠.

٢- وفي ذلك إشارة إلى سياسة أبي بكر القائمة على التوزيع المباشر لكل ما يأتي لبيت المال، نظراً لقلتها وعدم كفايتها في سد النفقات العامة.

٣- أي مائتي ألف درهم. الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣ ص٢١٣، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٠.

٣-أزمة عامة الرمادة:

لقد برع الفاروق رضي الله عنه بإدارته للأزمة الاقتصادية في عام الرمادة أو المجاعة، ولقد شكلت سياسته نموذجاً تأصيلياً في التعامل مع النكبات التي تصيب الأمة عبر العصور حيث أمر باحتواء الأزمة بما يلي:

١-الاستسقاء (الالتجاء إلى الله): حيث أن عمر رضي الله عنه بكى وجثا على ركبتيه خشعاً يدعو الله إلى أن مطر الناس.

٢-مساواة الخليفة مع الرعية في الطعام والكساء: حيث حلف عمر رضي الله عنه لا يذوق السمن واللبن حتى يحيا الناس. لقد كان عمر أبيض أمهق تعلوه حمرة، يصّفر لحيته وإنما تغير لونه عام الرمادة لأنه أكثر أكل الزيت، ولأنه حرم على نفسه السمن واللبن حتى يخصب الناس. وجاءت ممارسة الفاروق رضي الله عنه لهذا المبدأ خير شاهد مبدأ المساواة في دولته.

٣- حسن التدبير والتوزيع العادل: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين. لقد تمنى عمر رضي الله عنه لو أخذ من فضول أموال الأغنياء عام الرمادة لتقسيمها على الفقراء، وذلك عندما عجز بيت المال آنذاك عن مواجهة تلك الأزمة المالية ويُستدل من ذلك على جواز فرض نصيب من المال على الأغنياء وقت الضرورة وذلك بشروط، وضوابط محددة، وهو ما يسمى بالتوظيف.

ومن أمثلة ذلك: ما قاله عمر رضي الله عنه: لئن أصاب الناس سنة لأنفقن عليهم من مال الله ما وجدت درهماً، فإن لم أجد ألزمت كل رجل رجلاً.

٤-حفر خليج بين النيل والبحر الأحمر من خلال ما قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه من إصلاح بحر القلزم وراسل فيه الطعام من مصر فصار الطعام بالمدينة كسعر مصر.

٥-الالتجاء على الأمصار وإلى الأرياف حول المدينة: إن عون المؤمنين لبعضهم في كل الأحوال هو من قبيل فعل الخير، وهذا في الأحوال العادية فكيف في أوقات الأزمات؟ لذا كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بإمارة البصرة وبأن يسير إلى كور الأهواز صلحاً وعنوة، فوظف عمر عليها (١٠٠٤٠٠٠٠٠) درهم عشرة ملايين وأربعمائة ألف، وجاء أبو عبيدة رضي الله عنه بأربعة آلاف راحلة من الطعام وأمدَّ غيرهم بمدد كثير.

١- البيهقي كتاب قسم الفيء والغنيمة باب إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية جـ٦ ص٣٦٤. وذكره المتقي الهندي في كنز العمال جـ٤ ص٨٣٨.

٢- سنة ١٨ هـ وعام الرَّمادة معروف سمي بذلك لأن الناس والأموال هلكوا فيه كثيراً وقيل هو لجدب تتابع فصير الأرض والشجر مثل لون الرماد والأول أجود وقيل هي اعوام جَدْب تتابعت على الناس في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لسان العرب جـ٣ ص ١٨٥.

٣- إدارة ومعالجة الأزمات في الإسلام للدكتورة سوسن سالم الشيخ ص١٢٢ط ١ دار النشر للجامعات ١٤٢٤ هـ.

٤- النكبات: ما ينزل بالدول من حصار اقتصادي وحوادث ومصائب كبيرة كآثار الحروب والمجاعات، والقحط، والزلازل، والفيضانات، والنقص الحاد في الأمور الطبية والتعليمية وغيرها.

٥- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩، برقم ٣٧٢٩٨ . كذا تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر جـ٢٦ ص ٣٢٨، ط١، ١٤١٩هـ دار الفكر بيروت.

٦- المستدرك على الصحيحين جـ٣ ص٣٧٧ للحاكم النيسابوري دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ ، فتح الباري لابن حجر العسقلاني جـ٢ ص٤٩٧ دار المعرفة، تاريخ ابن خلدون جـ٢ ص ١١٤ دار إحياء التراث العربي بيروت .

٧- تاريخ ابن خلدون جـ٢ ص ١١٤ .

٨- شَدِيدُ البَيَاض.

٩- تحفة الأحوذي للمباركفوري جـ ١٠ ص٢٧. دار الكتب العلمية .

١٠- تاريخ الطبري جـ٢ ص ٥٧٩ .

٧-إشرافه على توزيع الطعام حيث أمر باستخدام الرواحل كطعام، وقام بمتابعة مستمرة للأزمة حتى نهايتها. لقد أنفق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الرمادة حتى وقع مطر، فترحلوا، فخرج إليهم عمر رضي الله عنه راكبا فرساً فنظر إليهم وهم يترحلون بظعائنهم فدمعت عيناه فقال رجل من بني محارب بن خصفة أشهد أنها انحسرت عنك ولست بابن أمة، فقال له عمر رضي الله عنه: ويلك ذلك لو كنت أنفقت عليهم من مالي أو من مال الخطاب إنما أنفقت عليهم من مال الله عز وجل.

٨-وقف إقامة حد السرقة، وتأخير دفع الزكاة في ذلك العام حيث سرق غلمان حاطب بن أبي بلتعة في عام الرمادة ناقة لرجل مزني فنحروها، وأكلوها، ورفع الأمر إلى الفاروق، فطلب الغلمان فاعترفوا أنهم سرقوها من حرز، والذين سرقوا عقلاء مكلفون، ولم يدعوا ضرورة ملجئة للسرقة، فأمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم - ولكنه - وهو يعيش عام الرمادة ويرى حال الناس التمس لهم عذراً فقال لمولاهم: إني أراك تجيعهم؟ واكتفى بذلك، وأوقف القطع، وأمر للمُزني بثمن ناقته مضاعفة (٨٠٠ درهم)، فقد درء الحد عنهم للضرورة.

القلزم: مدينة من أعمال مصر على ساحل البحر، وسمي القلزم لأنه في مضايق بين جبال، وفيه جبال عالية فوق الماء وطرق السفن منها معلومة لا يدخلها إلا المهرة من رؤساء البحر العالمون بطرقاته، وبين القلزم ومصر تسعون ميلاً. عن الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحِميري، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت ط 2 - 1980م.

عبد الله بن قيس: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عامله على زبيد وعدن، واستعمله عمر رضي الله عنه على البصرة ثم استعمله عثمان بن عفان عليها بطلب من أهلها وكان أحد الحكمين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما مات بالكوفة، سنة اثنتين وأربعين. عن أسد الغابة جـ 3 ص 364.

أبو عبيدة بن الجراح عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري المكي: أحد السابقين الأولين، شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، وسماه أمين الأمة، واستخلفه أكثر من من مرة على سرايا و وجهه أبو بكر إلى الشام سنة ثلاث عشرة أميراً، وفيها استخلف عمر، فعزل خالد بن الوليد وولّى أبا عبيدة ، توفي أبو عبيدة في سنة ثمان عشرة، وله ثمان وخمسون سنة. عن سير أعلام النبلاء جـ 1 ص5.

حاطب بن أبي بلتعة عمرو بن عمير بن سلمة: من مشاهير المهاجرين، شهد بدرا والمشاهد. وكان رسولُ النبي إلى المقوقس، صاحب مصر. وكان تاجراً في الطعام له عبيد. وكان من الرماة الموصوفين. توفي سنة ثلاثين. سير أعلام النبلاء للذهبي جـ2 ص43.